PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(8): 84-95
ISSN:1553-6939

Textual transcendences in the prophetic praise poetry: The poem of "Taḥiat Al-Muštaq w tanğiyat Al-ʾšwaq" by Ibn Al-Khalouf Al-Qasantini as an example

MAACHE Ali

University of Laarbi Ben M'hidi -Oum El Boughi- (Algeria), E-mail: ali.maache@univ-oeb.dz

Received: 07/2024, Published: 08/2024

Abstract:

Textual trenscendence has replaced intertextuality being a more general and comprehensive term in tracking textual relationships and textual dialogue. This is what Jarrar Genette has reached according to his vision. Intertextuality is a form of textual transcendence. Through this article we will try to highlight the overlap between the poetic and the narrative (prose). By narration we mean here the biography of the Prophet as it tells of the life of the greatest prophet Muhammad, may God bless him and grant him peace be upon him, hence telling his story or how poetry tells his biography through poetry of praise?

Keywords: textual transcendences, textual dialogue, poetry, narration, prophetic biography.

المتعاليات النصية في قصيدة المديح النبوي
تحية المشتاق وتنجية الأشواق لابن الخلوف القسنطيني أنموذجا

علي معاش

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي – (الجزائر)، البريد الإلكتروني: ali.maache@univ-oeb.dz

ملخص:

إن مصطلح المتعاليات النصية **transtextualite** (يقطين, سعيد;، 2001) أخذ مكانة مصطلح التناص كونه أعم وأشمل في تتبع العلاقات النصية وحوار النصوص؛ وهذا ما اهتدى إليه جرار جينيت وفق تصوره؛ فالتناص شكل من أشكال المتعاليات النصية، وسنحاول من خلال هذا المقال إبراز التداخل بين الشعري و السردي (النثري) ونقصد بالسرد هنا السيرة النبوية كونها تحكي عن سيرة النبي الأعظم محمد .صلى الله عليه وسلم. تسرد لنا حكايته أو كيف يحكي الشعر السيرة العطرة من خلال شعر المديح؟

الكلمات المفتاحية: متعاليات نصية، حوار نصوص، شعر، سرد، سيرة نبوية.

مقدمة :

يتقاطع الشاعر في قصيدته المدحية " تحية المشتاق وتنجية الأشواق" لابن الخلوف القسنطيني مع السيرة النبوية؛ حيث أعاد كتابتها وفق تجربته الشعرية و ثقافته الروحية، ليؤكد وحدة شخصيته، فكانت نصوصه نقطة تشابك للكثير من النصوص الحضارية المقدسة الدالة على وعيه العميق ما جاء به نبي الهدى، وهذا الاستمداد من الذاكرة أفصح عنه الشاعر صراحة في نصوصهيمكننا التعالي النصي عنده في استدعاء الدلالات الخفية الكامنة فيه وتوظيفها في قصيدته وفق ما يلائم حالته النفسية،

فكان بذلك تناصا تآلفيا مشى وفق تجربته الشعورية موظفا معاني تقاطعت بين النصين، فهذه العلاقة المشتركة بين النصين الحديث النبوي والقصيدة، ولدت حالة إنسانية أشبه ما تكون بالحالة الصوفية، إذ تتصارع في الشاعر نزعتان، نزعة ترابية تشده إلى الأرض ونزعة روحانية ترفعه إلى السماء، لا يرى في هذا الجمال الدنيوي إلا شهوة حفتها النار.

وتبقى قيمة هذه النصوص الغائبة والحاضرة في الوقت نفسه في ذهن المتلقي بطريقة محافظة، وهذا يعود إلى روحانية الشاعر ومحافظته على دينه وأصول تعامله مع هذا النصوص، ومن تناصاته مع الحديث النبوي ما تضمنته قصيدته يقول فيها:(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014)

وحَبَّذَا زمنُ الإحْرَامِ حيْثُ حَـلَتْ لِلْمُـحْـرِمِيـنَ بِلَبَّيْـكَ المُناجَــاةُ

وحَبَّذَا الْعَيْشُ فِي أَكْنَافِ مَكَّــةَ إِذْطَابَتْ لَنَا بِمِنًى والْخِيفِ سَاعَاتُ

وحَبَّذَا عَرفَاتُ الْخَيْرَ حَيْثُه هتْ بِوابِلِ الْعَـفْوِ لِلْعَــاصِـي سَحَابَاتُ

حَيْثُ الْحَبِيبُ نَـدِيمٌ والْمَقَـامُ حِمَيو الـرَّاحُ فِي كَأْسِهَا نَفْيٌو إِثْبَـاتُ

إن أول ما يصادفنا في هذه الأبيات هو كلمة " حبذا " المتكررة والدالة على التمني والحنين والشوق، فالشاعر يتحرق شوقا لزيارة هذه الأماكن المقدسة أثناء الإحرام، فيذكر مكة، مى، حيف، عرفات، .... واستحضار هذه المعالم الدينية تبين لنا مكانة هذا البلد الآمن الذي يأتيه الناس من كل فج عميق، فيتطهرون من الرذائل، ويعانقون بأرواحهم ذلك المكان الروحي الذي يبعث في أنفسهم الأمان و الطمأنينة.

فالأبيات إذن توحي بالتشويق والحنين والصعود نحو الأعلى لأن الشاعر في مناجاة دائمة للوصول إلى الحبيب الساكن في هذه الأماكن المقدسة، فينساب بذلك مشاعره غير شعائر الإسلام ، فكان تناصا سنته – صلى الله عليه وسلم – حيث روى البخاري ومسلم عن أبي الله عنه قال: سئل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أي العمل أفضل قال: « إيمان بالله ورسوله، قيل ثم ماذا ؟ قال الجهاد في سبيل الله، قيل : ثم ماذا ؟ قال حجمبرور»(النووي، 1526).وروى مسلم عن أبي هريرة –رضي الله عنه –أيضا قال: خطبنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فقال: « يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا »(النووي, يحي بن شرف الدين ;، 1526).

وتقدم حديث الشيخين:«بني الإسلام على خمس وعد الحج »(النووي، 1526، صفحة 27).كما روى الشيخان عن أبي هريرة أيضا قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– « من حج لله فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»»(النووي، 1526، صفحة 82).وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله –صلى صلى الله عليه وسلم– « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »(النووي، 1526، صفحة 82).فالتشوق إلى الحج والحنين لزيارة أماكنه المقدسة، لهو سير على نهج الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكان تناصا تآلفيا من ناحية بناء المعنى، حيث ضمن الشاعر أبيات قصيدته معاني هذه الأحاديث، لأنه واع بهذا التواصل الروحي و الديني، لأنه وكما نعلم قد تأصلت فيه جذور التربية الروحية و الدينية؛ فهذه الصورة نابعة من التجربة الشعورية له ومن انتماءه الديني كما قلنا، ثم نسافر مع الشاعر في استدعائه لرحلة الإسراء والمعراج يقول:(النووي، 1526، صفحة 82)

دَعَاهُ فِي لَيْلَــةِ الْمِعْـرَاجِ خَـالِقَهُ لِحَضْــرَةٍ حَضَــرَتْ فِيهَا السَّعَـادَاتُ

وسَارَ منْ فَرْشِهِ فَوْقَ البُـــرَاقِ إِلَى عَرْشٍ أَحَاطَتْـهُ لِلْبَارِي عِنَايَـــاتُ

وأَمَّ بِـالرُّسْـلِ و الأَمْـلاَكِ ثُمَّ رَقَى مَرْقَى لَـهُ الْعِزَّ و التَّأْيِيدُ مَــرْقَـاةُ

وصَارَ مُخْتَرِقًا حُجُبَ الْجَلاَلِ إِلَى أَنْ شَرَّفَتْـهُ يَا عَبْـــدِي الإِضَـافَاتُ

إلى أن يقول :(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، صفحة 330)

نَادَاهُ سَل تُعْطَ أَوْ قُلْ يُسْتَمَعْ كَرَماً وَاشْفَع فَلَولاَكَ لَمْ تُرْجَ الشَّفَاعَـاتُ

وعَـادَ فِي لَيْـلِ مَسْـرَاهُ لِمَـضْجَعِهِ والأُفْقُ لَمْ تَنْكَـشِف عَنْهُ الدُّجُنَـاتِ

فهذه الأبيات تدل دلالة واضحة على إعادة الشاعر لكتابة النص الغائب وتوظيفه توظيفا فنيا بطريقة الامتصاص حيث روى عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: « ففرج عن سقف بيتي، وأنا بمكة فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغه في صدري، ثم أطبقه ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء الدنيا، فلما جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا ؟ قال: جبريل قال: هل معك أحد قال: نعم معي محمد – صلى الله عليه وسلم – قال: أرسل إليه، قال: نعم، فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة، إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يسارهبكى، فقال: مرحى بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم وهذه الأسودة على يمينه وشماله، نسيم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بي إلى السماءالثانية فقال لخازنها: افتح .. »(فتح، 1985).وهكذا حتى عرج السماوات السبع والتقى جميع الأنبياء، موسى، عيسى، إدريس، إبراهيم – عليهم السلام – إلى أن يقول : « ففرض الله خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال : ما فرض الله لك على أمتك، قلت: فرض خمسين صلاة، على أمتي قال: فارجع إلى ربك فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعني فوضع شطرها ... إلى أن أصبحت خمس صلوات»(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، الصفحات 364-368)، وهكذا يستمر في سرد هذه المعجزة إلى أن يبلغ سدرة المنتهى إلى الجنة الطهور.

كما روى عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي، قال: كان عبد الله بن مسعود يقول: « أوتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بالبراق، وهي الدابة التي كانت تحمل عليها الأنبياء قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها، فحمل عليها، ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له فصلى بهم، ثم أوتي بثلاثة آنية، إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء ماء، قال: فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: فسمعت قائلا يقول حين عرضت على: إن أخذ الماء، غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أمته، قال: فأخذت إناء اللبن، فشربت منه، فقال لي جبريل – عليه السلام – هديت وهديت أمتك يا محمد »(بن هشام بن أيوب الحميري، تحقيق مصطفى السيقا، و الشلبي، 1955).

إنه تداخل النصي حافظ من خلاله الشاعر على دوام النص الأصلي " الحديث" مع إجراء بعض التغيير في التشكيل الشعري، ونقصد بالتداخل النصي هنا« التواجد اللغوي (سواء أكان نسبيا أم كاملا أم ناقصا) لنص في نص آخر... »(جرار, جينيت; ترجمة شبيل, عبد العزيز;، 1999).حيث إن الشاعر استطاع من خلال هذه الأبيات الشعرية أن يصف لنا تلك الرحلة العجيبة وهي معجزة من حيث كونها خارقة للعادة ولما ألفه الناس من قوانين الانتقال، إذ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قطع الرحلة ذهابا وإيابا مع كثرة ما رأى وشاهد من مشاهد ومناظر يحتاج بعضها إلى سنوات، كل ذلك في فترة زمنية قدرت بأنها قبل أن يبرد الفراش(راجح, عبد الحميد الكردي;، 1985).

فالشاعر قد عرف كيف يتعامل مع نص الحديث ويتناص معه عن طريق التضمين قراءة وتوظيفا وما التناص« إلا جدلية التذكر التي تنتج النص حاملة آثار نصوص متعاقبة»(تيزفتان, تودوروف;، 1987).فهذا التفاعل مع نص الحديث ساعده على نسج تجربته وفق رؤيته وحالته النفسية، فهو مشهر بشخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – مما جعله يذكر في هذه القصيدة كل ما يخصه من صفات، حيث تجده يذكر أسماء يقول :(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، صفحة 326)

مُحَمَّدٌ، أَحْـمَدٌ، خَيْــرُ الأَنَــامِ ومَــنْ خَصَّتْهُ فِي الذِّكْرِ أَوْصَافٌ شَـــــرِيفَاتُ

الْحَاشِرُ، الْعَاقِبُ، الْمَاحِــي الذِّي مُحِيَتْ عَنِ الْــوَرَى بِمَــواضِيــهِا لْـغِوَايَـاتُ

إنه تناص تألفي أو تطابقي مع حديث رواه البخاري عن أسماء الرسول – صلى الله صلى عليه وسلم – عن مالك عن ابن هشام عن محمد عن جبير بن مطعم عن أبيه –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: « لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، (الصالح الصديق، 1973) ، فهذه الأسماء الخاصة بالنبي – صلى الله عليه وسلم – ضمنها الشاعر في قصيدته واستلها من هذا الحديث، وهذا يدل على مدى تعلق الشاعر بالرسول الكريم، ومدى حبه له وإتباع سنته الشريفة وهذا الحب يوصله إلى هدفه وهو نيل محبة الله لأن « الحب الإلهي وراء حب العقلاء من الإنسان والجن والملك، فإنه صفة قديمة قائمة بذاته تعالى ..... وحب العقلاء قائم هم فيحبونه بحبه إياهم»(التهناوي الحنفي, محمد علي;، 1996)، وحبه العميق للشخصية المحمدية جعله يسرد لنا صفاته الخلقية أو الحسية :(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، الصفحات 327–328–329)

أَزَجُّ*، أَبْلَجُّ، أَقْنَى***الأَنْفِ قَدْ بَسَمَــتْ مِنْــهُ عَـــنِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ الثَّنِيّـــاتُ**

مُحَبَّــبٌ الثَّغْـــــرِ حُـــلــوُ الشَّكـلِ مَنْـطِقُـهُ عَنْهُ الْفَصـاحَةُ تُرْوَى والْبَــلاَغَـاتُ

مُضَرَّجُ الْخَدِّ** لَدْنٌ***** الْقَـــدِّ، تَحْسَبُــهُ غصْـنًا، تَفَتّحَ فِـي أَعْــلاَه وَرْدَاتُ**

أَغَرُّ أَشَبُّ سَاجِـي الطَّرْفِ لَـوْ فَـرَضَـــتْ مَــلاَحُــهَ مَا تَعَـدَّتْهُ الْمَــلاَحَــاتُ

أَشَمُّ أَحْـرَى شَرِيـفُ النَّفْـسِ قَدْ خَضَعَـــتْ لِتِرْبِ أَفْعَالِــهِ الشُّــمُّ الرَّفِيــعَــاتُ

عَبْـلُ الـذِّرَاعِ نَدِيُّ الْكَـفِّ مُلْتَـفِـتٌ عــَنْ جِيدِ ظَبْيٍ، خَلَــتْ مِنْهُ الْتِفَــاتَاتُ

ضَخْمُ الكَرَادِسِ رَحْـبُ الصـَّدْرِ مُنْعـَطِفٌ عَنْ عَطْفِ بَانٍ زَهَتْ مِنْــهُ انْعِطَــافَاتُ

زَاهِـي الجَبِينِ سـوَاءَ الصــَّدْرِ تَعْـضُـدُهُ حَــلاَوَةٌ مُزِجَــتْ فِيــهَا طَــــــلاَوَاتُ

إلى أن يقول:

تَجَمَّعَتْ فِيهِ أَوْصَـــــافُ الْجَمَـــالِ كَمَا تَفَرَّقَـــــتْ فِي مَعَانِيهِ الكَمَالاَتُ

أَرَادَهُ اللهُ مَــحْبُــــــــوبًا لِحَــضْــــرَتِـهِ فَكَــــانَ ذَاكَ وللَّــهِ الإِرَادَاتُ

لقد استدعى الشاعر في هذه الأبيات جمال هيئة الرسول – صلى الله عليه وسلم –وحسن خلقته؛ مع جمال في النفس ينعكس بهاء على الوجه « فمحمد بعده الله عز وجل لأن يكون نبيه الخاتم للبشرية، ورسوله المجتبى، وسفيره إلى كل خلقه يقيم الحجة على البشرية كافة، ومن يرشحه الله عز وجل لهذه الوظيفة، فإنه يكفل له كل ما يساعده على إنجازها وإتمامها، بحيث يجعل لصاحبها قبولا في نفوس الناس، وحيث لا يجد الناس فيه ما يعيبه خَلْقا و لا خُلقا ... وأن تتوافر فيه الصفات الطيبة ولمحات الذكاء، وسلامة الفطرة، وسلامة الهيئة من كل ما يعيبها من العيوب »(راجح, عبد الحميد الكردي;، 1985، صفحة 53).

فهذه الأوصاف التي ذكرها الشاعر تتناص في معظمها، إن لم نقل كلها مع تلك التي ساقها ربيب النبي – صلى الله عليه وسلم –هند بن أبي هالة ابن خديجة زوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان وصافا فقال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فخما مفخما يتلألأ وجهه، تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من الربوع، وأقصر من الشذب (أي ربعه أقرب إلى الطول إلى القصر ولم يكن بائن الطول)، عظيم الهامة، رجل الشعر (أي شعره مرسل كأنه مشط)، إذا انفرقت عقيقته فرق (شعره قابل للفرق) وإلا لا يجاوز شحمة أذنيه، ذا وفرة ، أزهر اللون (أي نيرا مزهرا) ، واسع الحين، أزج الحواجب سوابغ في غير قرن بينهما عرق يدره الغضب، أقنى العرنين (أي أنفه مائل) له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين ، ضليع الفم ، أشب ، مفلح الأسنان (أي بين أسنانه مسافات قليلة جدا وهذا من الجمال) ، دقيق المسربة (شعره بين الصدر والسرة كأنه خيط) كأن عنقه حياء دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق باديا متماسكا، سواء الصدر والبطن فسيح الصدر، بعيد ما بين المنكبين، عاري الثديين والبطن، عما سوى ذلك ، أشعر الذراعي والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شنن الكفين والقدمين (أي كفاه وقدماه ممتلئة لحما) سائل الأطراف، إذا زال زال تقلعا (أي إذا مشى، مشى بقوة، بحيث يرفع رحله بقوة) ... يمشي هونا، ذريع المشية، إذا مشى، كأنه ينحط من صبب، وإذاالتفت، التفت جميعا، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ، جل نظره الملاحظة يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام عليه الصلاة والسلام(راجح, عبد الحميد الكردي;، 1985، الصفحات 56-57).

إنها صفات الجمال والكمال التي خصها الله –عز وجل– لرسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم– استجابة لدعائه الذي يقول فيه « اللهم كما أحسنت خَلقي فحسن خُلقي ، فاستجاب الله تعالى دعاءه – صلى الله عليه وسلم – وجعله أكمل الناس خلقا واجتمع فيه من خصال الكمال التي لا يحيط بها حد ولا يحصرها عد، وهذه الصفات تناولتها كتب التاريخ والسيرة النبوية في جميع أطوارها المختلفة، والشاعر يتناص مع الحديث ومع ما ذكر في كتب السيرة النبوية تناصا إشاريا، تألفيا حافظ عليه في البنية اللفظية والمعنوية محاولا امتصاص كل ما يتعلق بخصاله – صلى الله عليه وسلم – لأنه هكذا كان يتقرب إلى ربه وكما ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن الله عز وجل جميل يحب الجمال» (فنسنك, أ.ي; تحقيق عبد الباقي, محمد فؤاد;، 1936). وابن عربي يرى بأن المخلوقات ما هي إلا صور تتحلى فيها صفات الله عز وجل وأسماؤه الحسنى لذلك فهو بين الحكمة من خلق الخلق فيفسر الحديث القدسي: « كنت كنزا مخفيا لم أُعرف فخلقت الخلق فيه فعرفوني بأن الحق تعالى شاء أن يظهر الخلق عامة والإنسان خاصة ليعرف، وليرى نفسه في صورة تتجلى فيها صفاته وأسماؤه»(التفتازاني, أبو الوفاء الغنيمي;، 1932).وهكذا يصبح الجمال مظهرا من مظاهر الاتصال، إذ الجمال هو الله وأن كل جميل يوصل إلى الجمال الحق .

وبعد أن تحدث عن صفاته – صلى الله عليه وسلم –أخذ في سرد معجزاته:(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، صفحة 331)

وهو الـذي سبحت في وســط راحتــه صم الحـصى ولـه قــد درت الشـاة

وهو الذي ما مشى فيحـــــرها جـــرة إلا وقتـه من الرمــضاء غمـــامات

وهـو الذي أبـــرأ الأعــمى بنفـــثتـــه وكم بها شفيت في الخلق عاهـــات

وهو الذي استنطق العجمي وحن له الـ جـــذع اليسير، وجاءته السحابات

أعـــاد ملـــح أجـــاج ألمـــا بنـفثتــه عـــذبا سواغاً له في الشرب لذات

إلى أن يقول :

وفي الصبا والحيا والانشقــاق وفي الأســـرار، وفي الغار آيات جليات

وفي حنيين، وفي بـــدر وفي أحـد وفي مريسيغ* أحوال عظيـــــــمات

نلاحظ أن الشاعر قد سرد لنا معجزات الرسول – صلى الله عليه وسلم– سردا تاريخيا، مستلهما كل ذلك سواء من كتب السيرة النبوية أو الأحاديث لكي يبين لنا تلك العلاقة الحميمة التي تربطه بحضارته الدينية المقدسة؛ إنها حقا صفة إيجابية ترسخت مبادؤها في نفس الشاعر فشخصها لنا من خلال هذه الأبيات التي تتجلى فيها لحظات الصفاء والوحي الشاعري، فهو كما نعلم شديد التعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم – فقد كان البدئ وكان الختام يقول :(القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، صفحة 331)

وهو الذي كان قبل الكون ، فاحر به بــداية حصــرت فيها النهايات

لأن « المحبوب الأول من الخلق محمد – صلى الله عليه وسلم– ثم من كان أقرب منه»(التهناوي الحنفي, محمد علي;، 1996، صفحة 372) فلقد كان تناص الشاعر تناصا تآلفيا مع كل ما روي عن الرسول – صلى اللهعليه وسلم – من معجزات محافظا بذلك على البنية اللفظية والمعنوية للكلمة؛ لأن الكلمة كما يقول باختين: « تتجه نحو هدفها، تدخل بيئة حوار مضطرب مليئة بالتوترات»(حمودة، 1998).إنه يتقاطع مع هذه المعجزات ليعيدنا إلى ذلك التراث، فيجعل الذاكرة تعيد من جديد دعوة هذا التاريخ الإسلامي في بداياته فقد روى البخاري عن جابر – رضي الله عنه– قال « كان جدع يقوم إليه النبي – صلى الله عليه وسلم – يعني في الخطبة فلما وضع المنبر سمعنا للجذع مثل صوت العشار حتى نزل النبي – صلى الله عليه وسلم – فوضع يده عليه فسكن، وفي رواية فلما كان يوم الجمعة قعد صلى الله عليه وسلم– على المنبر فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تتشق، وفي رواية فصاحت صياح الصبي فنزل النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يُسكَّت حتى استقرت، قال: بكت على ما كانت تسمع من الذكر»(النووي، 1526، صفحة 92).

كما روي مسلم عن أبي الفضل العباس بن عبد المطلب –رضي الله عنه– قال: «شهدت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله – عليه الصلاة والسلام – فلم نفارقه ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – على بغلة له بيضاء فلما التقى المسلمون والمشركون ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يركضبغلته قبل الكفار وأنا آخذ أكفها إرادة أن تسرع وأبو سفيان أخذا بركاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أي عباس ناد أصحاب السَّمُرَة قال: العباس وكان رجلا صيتا فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة فو الله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوت عطفة البقر على أولادها فقالوا : يا لبيك، يا لبيك ..... فنظرت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال: هذا حين حمى الوطيس، ثم أخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حصياتفرميبهن وجوه الكفار ثم قال: انهزموا ورب محمد؛ فذهبت أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته فمازلت أرى حدهم كليلا وأمرهم مدبرا »(النووي، 1526، الصفحات 96–97)،وروى البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي– رضي الله عنه – قال « جاء جبريل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة»(الأنصاري, ابن هشام; التدمري, عمر عبد السلام;، 1990).

ومن بين المعجزات التي استحضرها كذلك في قصيدته حادثة شق الصدر والتي يرويها ابن إسحاق يقول: « حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان ، عن أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالوا له : أخبرنا عن نفسك ؟ قال نعم أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى –عليهما السلام– ورأت أمي حين حملت بي، أنه خرج منها نور أضاءت به قصور الشام ، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا في بهم لنا أتان رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا قلبي فشقاه. فأخرجا منه علقة سوداء فألقياها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج، حتى إذا أنقياه رداه كما كان »(أبي الفداء, اسماعيل بن كثير; تحقيق مصطفى , عبد الواحد;، 1987)، كما تكررت هذه الحادثة له – عليه الصلاة والسلام – حين بلغ خمسين سنة من عمره أي يوم مسراه وهذا كله استحضره الشاعر كما هو ووضعه في قصيدته مع أحداث بعض التغيير

أو التحوير في الكلمات والألفاظ محافظا بذلك على المعنى حيث بين لنا معجزاته – صلى الله عليه وسلم – من ولادته وكيف كان في صباه وتلك الغمامة التي كانت تضلله وتتبعه في يوم شديد الحرارة ، وكيف درت شاة أم معبد، وكيف أبرأ الأعمى بنفثة يده والنبع الماء الذي خرج من يده، وفي غار حيراء كيف جاءه الوحي آيات عظيمات، فقد سئل الرسول –صلى الله عليه وسلم– كيف يأتيك الوحي، قال: « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليا فيفصم عني،أو قد وعيت عنه ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول»(فتح البارئ, بشرح صحيح الإمام البخاري; العسقلاني , أحمد بن علي بن حجر;، 773–852) ، وغيرها من المعجزات التي استحضرها عبر قصيدته وقد حرص الشاعر في سرد هذه المعجزات على التكرار في بداية الأبيات مثل ضمير الغائب " هو " " واسم الموصول " الذي " وحرف الجر " في " ليؤكد حقائق هذه المعجزات وأنه ضعيف أمام قدرة الله؛ فهو من سيهدي قلبه ويصلح حاله، ويغفر ذنبه؛ فهو يلتجئ إليه لتفريج ما به من النقائص والعيوب وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة(أبو الفدا, اسماعيل بن عمر بن كثير، 774 هـ)لذلك زهد في الدنيا وأدرك حقيقتها، فهي دار زوال وانقلابات وغرور لذا تجده يقول: (القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;، 2014، الصفحات 337–338)

ليس البعيد الذي أقصته ثروته بل البعيد الذي أقصتــــه زلات

لا تطمئن لدنيا قابــلتك بـما تــريد منها فلـــدنيا انقلابـات

هي الغرور فلا تأمن كواسـرها فقد فرسن وللصيد افتراســات

ماذا الركون لدار رسمها خـربو للردى في مجاريـــك مجالات

دار متى أضحكت أبكي تقلبها وهـكذا الــدهـر تـارات وتـارات

فالشاعر بعد أن أصابه الكبر وناله الشيب، وبعد أن استقر الألم والحسرة والندم في نفسه، أحس بالوحدة، وأحد يتأمل في هذه الدنيا التي أدرك أنها ظل زائل، ومرد كل شيء فيها إلى الطين، نادما على ما فاته من شبابه الذي قضاه في اللهو وتتبع ملذات الدنيا التي لا تنتهي راجعا بذلك إلى الله، تائبا طالبا الغفران، فهو في حالة تقرب من الله –عز وجل– عاملا بأحاديث الرسول –صلياالله عليه وسلم – فقد روى عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – قال: جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس؟ فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»(النووي, يحي بن شرف الدين;، 1984)، كما روى مسلم عن المستورد ابن شداد – رضي عنه – قال رسول الله –صلى الله عليه وسـم – « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم* فلينظر بم ترجع »(النووي، 1526، الصفحات 115–116) ، وروى مسلم عن جابر رسول الله – رضي الله عنه– قال: « إن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–مر بالسوق والناس كنفتيه** فمر بجدي أسك *** ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم

فقالوا: ما نحب إنه لنا بشيء وما نصنع به ثم قال: أتحبون أنه لكم قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا؛ إنه أسك فكيف وهو ميت فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»(النووي، 1526، صفحة 116) ، كما روى مسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(النووي، 1526، صفحة 116)، وعن ابن عمر – رضي الله عنه–أنه قال: أخذ رسول الله –صلى الله عليه وسلم–بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهلالقبور»(الصالح الصديق، 1973، صفحة 111).

فالشاعر بهذا يتبع سيد الهدى محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأنه هكذا كان يتقرب من ربه، فقد تم التقاطع بينهما في عبادة الله – عز وجل –بالاعتكاف والورع وترك متاع الحياة الدنيا؛ إنه تناص إشاري، مشى وفق تجربته الشعورية، حيث ضمن معاني هذه الأحاديث قصيدته، لأن الزهد في الدنيا فيه محبة الله، وتلك الغاية التي ينشدها الشاعر ويسعى للوصول إليها، بإتباعه لنهج الرسول –صلى الله عليه وسلم – والإقتداء به في تصرفاته وأعماله للوصول إلى حب الله فقد روى عن مسلم عن عائشة – رضى الله عنها– قالت: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه »(فنسنك, أ.ي; تحقيق عبد الباقي, محمد فؤاد;، 1936، صفحة 406).

فهذا التناص مع هذه الأحاديث الدينية التي ساقها الصحابة عن الرسول – صلى الله عليه وسلم– ما هو إلا معانقة لسبحات روحية لتهويمات وجدانية بدلالات هادفة بينت العمق الديني للشاعر،لأنه يجب عليه أن «يكون على علم بالشرع الشريف وأن يعمل به وأن يخلص الله فيه ليكون على هدى من ربه ونور من قلبه وهذا لا يتم بأتباع الشرع على شريطة صفاء النية والإخلاص في العمل وإحكام أمر المعتقد في التوحيد والتتريه لله عز وجل »(الشكعة, مصطفى;، 1983).

فالشاعر استطاع محاورة النص الحديثي، حيث استخرج منه دلالات مختلفة، أدرك من خلالها التجربة الذاتية التي مر بها فكان واعيا بهذا التفاعل النصي.

والشاعر قد وظف هذه الأحاديث للرسول –صلى الله عليه وسلم– عن طريق التضمين، محافظا بذلك على بنية المعنى، مع إجراء تغيير على مستوى بنية الكلمة، ليجسد لنا تلك العلاقة الموجودة بين النص الحاضر (القصيدة) والنص الغائب (الحديث) والتي تعطينا بنية موحدة لما يجمع بينهما في وحدة المعنى، لأن الكاتب أو الشاعر إنما يكتب لغة استمدها من محزون معجمي له وجود في أعماقه... وهو مخرون تكون من خلال نصوص متعاقبة في ذهنه(الغذامي، 1998، صفحة 323).

إن "ابن الخلوف" شديد التأثر بشخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – لذلك راح ينهل من منبعه العذب، من أقواله وأفعاله وكل ما يتعلق بسيرته الزكية – صلى الله عليه وسلم –لأنه يريد السمو إلى الأعلى والتخلص من الترابية العالقة به ليكون « ينبوع الحكمة ، وحياة الفطنة ومصباح القلب، وطبيب البدن وقاتل الشهوات وهادم الوسواس، ومنزل الإلهام وعصمة من شر النفس»(نادر, ألبير نصري;، 1964)، والله تعالى اصطفى محمد – صلى الله عليه وسلم – وجعله نموذجا فذا، ومثالا كاملا، اجتمعت فيه شجاعة موسى وشفقة هارون، وصبر أيوب، وإقدام داوود، وعظمة سليمان وبساطة يحي، ورحمة عيسى .... صلوات الله عليهم أجمعين»(الصالح الصديق، 1973، صفحة 82) ، فهو القائل – صلى الله عليه وسلم – «إن مثلي ومثل الأنبياء من

قبل كمثل رجل بنى بينا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء»(الصالح الصديق، 1973، صفحة 79)، فلقد كان من سبق الرسـول – صلى الله عليه وسلم – من الأنبياء – صلوات الله عليهم– كالمصابيح كل منها وضع في زاوية خاصة لا يضيء غيرها، فلما طلعت شمس الرحمة العامة، والهداية الشاملة من أرض الحجاز، لم تعد هناك حاجة إلى تلك المصابيح، وليس في طلقة أي نور آخر أن يقوم مقام هذه الشمس التي سطعت على العالم، فغمرته وبدلات ظلماته(الصالح الصديق، 1973، الصفحات 79–80).

وبهذا فالنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – يعتبر النموذج المثالي للإنسانية قاطبة يحتذى به في تصرفاته وأعماله وأخلاقه... وكل من أحب النبي – صلى الله عليه وسلم – فقد أحب الله؛ فقد روى البخاري عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: « كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي، قيل: ومن يأبي يا رسول الله قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(النووي، 1526، صفحة 90).

فهذه العلاقة المشتركة بين نص الشاعر " القصيدة " ونص الحديث النبوي الشريف، ولدت صورةخالدة ترسخ في ذهن المتلقي قيمة هذا النص المعجز الغالب والحاضر في الوقت نفسه .

خاتمة:

عموما فإن المتعاليات النصية فيقصيدة المديح النبوي يعد في هذه القصيدة مركز الرحي؛ لأنه من أهم الموضوعات التي حاول الشاعر استلالهما وصياغتهما وفق رؤيته الشعرية التي تبدو واضحة كل الوضوح في هذا النص؛ بل إنها تفصح عن هذا التواصل والتفاعل والتعالي وتفرض نفسها على القارئ ممارسة وتصورا، وارتحالا في التاريخ العربي الإسلامي، وفي السيرة النبوية والتحم فيها الشعر مع النثر مع السرد في تصوير أحداث كاملة المعنى والمبنى ؛ إن لم نقل كل ذلك كان الوظيفة الكبرى والهدف الذي أنتجت من أجله هذه القصيدة ومثل هذا التعالي النصي متأصل في الأدب العربي جذوره تمتد إلى أبعد الحدود وبخاصة ملامستها لاحداث سابقة غائبة وإعادة إنتاجها في قصائد المديح النبوي جماليا وفنيا ولذلك تتناغم القصيدة داخليا وخارجيا مع مرجعيات كثيرة من قصائد الزهاد والمتصوفة ومادحي الرسول – صلى الله عليه وسلم – ترابط وظيفي مفهومي اصطلاحي، إن لم نقل أنه أصبح نظام فكرة ومنطلق ثقافة، وخصوصية بنائية، مشتركة في إطار نظري عام، ولا يمكن هذا التعالي النصي أو التناصي أن يكون بمعزل عن هذه الإشكالية المرتبطة بما قلناه آنفا، إلا أن التقنية المتبعة فيه حقيقة تقنية سطحية أفقية وليست عمودية عميقة؛ يغلب عليها التآلف والتكرار والترديد سواء باستدعاء الكل أو الجزء أو الإشارة إلى المرجعية، ولذلك سارت هذه القصيدة على بنية واحدة متكاملة الأركان.

المراجع

1. الأنصاري, ابن هشام; التدمري, عمر عبد السلام;. (1990). السيرة النبوية (ط3). بيروت ، لبنان: دار الكتاب العربي.
2. البارئ فتح. (1985). شرح صحيح الإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، شيخ الإسلام، قاضي القضاة، الحافظ أبي الفضل، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني الشافعي (ط3). بيروت،لبنان: دار إحياء التراث العربي .

3. التفتازاني, أبو الوفاء الغنيمي;. (1932). مدخل إلى التصوف الإسلامي. القاهرة، كلية الآداب: دار الثقافة للنشر و التوزيع.

4. التهناوي الحنفي, محمد علي;. (1996). كشاف اصطلاحات الفنون. بيروت لبنان: دار الكتاب العلمية.

5. تيزفتان, تودوروف;. (1987). في أصول الخطاب النقدي الحديد (مفهوم التناص في الخطاب النقدي الجديد).

6. جرار, جينيت; ترجمة شبيل, عبد العزيز;. (1999). مدخل لجامع النص. المجلس الأعلى للثقافة.

7. راجح, عبد الحميد الكردي;. (1985). شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي. الجزائر: شركة الشهاب للنشر و التوزيع.

8. الشكعة, مصطفى;. (1983). ، المطالعة الإسلامية في العقيدة والفكر (ط2). القاهرة ، مصر.

9. عبد العزيز حمودة. (1998). المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيكية، سلسلة عالم المعرفة (ط1). سلسلة عالم المعرفة .

10. عبد الله محمد الغذامي. (1998). الخطيئة و التكفير. جدة ، السعودية: النادي الأدبي الثقافي.

11. عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، وبراهيم الأبياري تحقيق مصطفى السيقا، و عبد الحفيظ الشلبي. (1955). السيرة النبوية (ط2). بيروت ،لبنان: دار إحياء للتراث العربي.

12. فتح البارئ, بشرح صحيح الإمام البخاري; العسقلاني , أحمد بن علي بن حجر;. (773–852). الرياض، كلية الشريعة: المكتبة السلفية .

13. أبوالفدا, اسماعيل بن عمر بن كثير. (774 ه). تفسيرالقرآن (ط1). مصرالقاهرة: دارالكتبالمصرية.

14. أبي الفداء, اسماعيل بن كثير; تحقيق مصطفى , عبدالواحد;. (1987). السيرةالنبوية (ط1). بيروت،لبنان: دارالرائدالعربي.

15. فنسنك, أ.ي; تحقيق عبد الباقي, محمد فؤاد;. (1936). المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. ليدن: مكتبة بريل.

16. القسنطيني, ابن الخلوف; تحقيق العربي, دحو;. (2014). ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين (ط3). قسنطينة الجزائر: دار الألمعية للنشر و التوزيع.

17. محمد الصالح الصديق. (1973). الراج المنير.

18. نادر ,ألبير نصري .(1964) .;من رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء (ط 1) .(بيروت لبنان :المطبعة الكاثوليكية

19. .النووي, يحيبنشرفالدين ;. (1526). شرحمتنالأربعينالنووية‌فيالأحاديثالصحيحة. الجزائر: مكتبةالنهظة .

20. النووي, يحيبنشرفالدين;. (1984). شرحمتنالأربعينالنووية‌فيالأحاديثالنبوية (ط4). دمشقسوريا: مكتبةدارالفتح.

21. يحي بن شرف الدين النووي. (1526). رياض الصالحين لختصار الشيخ النبهاني. الجزائر: مكتبة النهضة.

22. يقطين, سعيد;. (2001). انفتاح النص الروائي ، النص والسياق (ط2). بيروت لبنان: المركز الثقافي العربي ،الدار البيضاء.